ولادة "شيطانية"

محمود خالد عبدالجواد

صراخ طويل تتخلله تأوهات، رأسها مقيدة في وسادتها اللينة من ريش النعام، لا تستطيع أن ترفع رأسها لترى بطنها كيف صارت في شهرها التاسع.

حركة عنيفة في رحمها، سكاكين تمزق أحشاءها، ويدها تتشبث بملاءة السرير الحريرية، كغريق يتعلق بقطعة خشب.

يقال إن الإنسان قبل الموت، يرى شريط حياته بكل ما فيه، المر والحلو، الأمل والألم، الضحكة والدمعة، وهذا بالضبط ما تراه الآن.

في أحد العصور القديمة، حيث الممالك والقصور، والملوك والأميرات، في مملكة تقع بين الجبال، كان الملك يذهب ويجيء أمام غرفته الواسعة، ينتظر البشرى من الخادمة، صراخ يكتمه باب الغرفة، يعقبه صوت بكاء رضيع، علا الصوت لمّا فتحت الخادمة الباب، وبشرته بقدوم أميرة صغيرة إلى الدنيا.

أقسم الملك أن يجعل حياتها جنة على الأرض، فهي الأميرة التي جاءت بعد سنوات من الانتظار، جميع أطباء المملكة لم يملكوا دواءً لما ظنّه الملك عقمًا في رحم زوجته، حتى جاء اليوم الذي تقيأت فيه الملكة، وأخبره طبيب بأنها حامل، قبل أن يصبح كبير الأطباء بفرمان من الملك.

شبّت الطفلة فصارت أميرة، بيضاء ينسدل شعرها الذهبي حتى خصرها، تتزين رقبتها بحلي من الذهب والياقوت، تجلس على كرسي متحرك من الأبنوس

وسط حديقة غنّاء تحت سماء صافية، والخدم حولها يحيطونها بنظرات من الغبطة، والحقد أحيانًا.

لم يعلم أحد أن داخل ذلك الجمال الفتّان، همًّا كبيرًا يجثم على قلبها، يشعرها بأن الحلي طوق يخنقها، والفستان يضيّق أنفاسها، صار نفاق الناس لا يثير سعادتها مثلما كانت طفلة، تبحث عن شيء واحد لم تجده في أسوار القصر أو حدود المدينة.

قررت أن تعبر الحدود وتخرج عن طوع الملك، رأت ما لم تره طوال أعوامها العشرين، غابة مظلمة وكلاب سوداء تنير الظلام بأنيابها البيضاء، سقطت مغشيًا عليها من الهلع، قبل أن تصحو وتجد جسدها نائمًا فوق سرير متهالك في كوخ صغير، بابه من الخوص وسقفه من سعف النخيل.

وشاب أفتنها بتجاهله، شكرته على إنقاذها فأجابها بفتور، سألها "ما حكايتك؟"، فكرت مليًّا قبل أن تحرك شفاهها، قصّت عليه حكايتها، رغم تحذير أبيها الملك من التحدث مع الغرباء.

أرادت أن ترحل، قبل أن يسمّرها نباح الكلاب بالخارج، قال لها "لو رحلْتِ الآن لصرتِ طعامًا لهم، ابقِ هنا حتى الصباح."

أعدَّ طعامًا وسألها أن تأكل معه إن أرادت، فقامت وأكلت، رأته يأكل بأنامله اليسرى، قال لها:

- "أثور على الفطرة، فلا آكل بيميني".

أعجبت بكلماته، فجربت أن تمسك اللقمة بيدها اليسرى، سألته "كيف تثور على فطرتك؟"، فسرد وسرد وهي تتابع باهتمام، رأت فيه ما كانت تبحث عنه، قطعت حديثه بقولها "أتتزوجني؟"

أجابها "أنا لا أتزوج."

-كيف؟

-الزواج فطرة، وأنا أرفض تقاليدها.

-ولكن...

-لا تقولي ولكن، إن أردتِ أن تثوري على حياتك الرتيبة، لا تفكري كثيرًا!

تملكتها حالة من الصمت للحظات، فما كان منها إلا أن دعته للسرير المتهالك، حتى أغواها الحب فجعلها بغيًا.

جلست في غرفتها الواسعة بقصر أبيها، تبكي حتى جفت الدموع، لا تزال تذكر حبيبها الذي شق جسده نصل رجال الملك الذين عثروا عليها بعد بحث لشهور، اعتادت فيها على حياتها الثائرة على فطرتها.

وفجأة، تقيأت، وقال طبيب المملكة إنها حامل، سواد أعظم أحلّ بقصر الملك، غابت السماء الصافية وحلت الغيوم.

أيام تمر، وألم كبير يضرب أحشاءها، حتى فوجئت بسريرها يتخضب بالدماء، من نقطة ونقطتين، إلى بقعة تتسع بمرور الأيام.

ومن بين الجميع الذين قاطعوا تلك المرأة البغية، جاءتها الماشطة الصغيرة التي تأثرت لألمها، فقالت لها إن ساحرًا يقطن أعلى الجبل، يملك دواءً لكل ألم.

هربت من حراس القصر، وسارت بدماء تخالط خطوات أقدامها، حتى صعدت لأعلى الجبل، بأنفاسٍ متشققة كادت تصعد معها روحها، وصلت للساحر وقصت عليه حكايتها، فنظر للبلورة، ونظر طويلًا، حتى تملكه الفزع، فقال لها "أتعرفين ما في بطنك؟"

-طفل بكل تأكيد.

-بل... شيطان!

هلع أصاب كل خلية في وجهها، قالت "ماذا تقول، أمجنون أنت؟"

-بصوت مرتعش يجيب "أقسم لك أني أرى في بلورتي، شيطانًا في جسدك"

بلسان عاجز تخالطه الدموع، خرجت حروف من شفتيها بصعوبة "كيف؟"

-إن من أحببته كان شيطانًا، بل من أخطر جنس الشياطين، تحول لإنسان كي يخالف فطرته، ولكن دماءه خالطت دماءك، و...

صرخت "ماذا تعني؟"

نظر للأرض وقال "ستلدين شيطانًا في جسد إنسان، له قرون وعينين حمراوين، رأسيتين كفرعي شجر متجاورين، دمه أسود وذيله طويل، و...

صرخت "سأمزقه"

-بل هو من يمزقك، إن قرونه تمزق أحشاءك كلما نمت.

بالدموع قالت "ماذا تعني؟"

-لا فائدة، ستموتين.

وفي ليلة غاب فيها القمر، جاءها المخاض، صراخ طويل لا ينقطع، تتخلله تأوهات، رأسها مقيدة في وسادتها اللينة من ريش النعام، تلمح -بصعوبة- بطنها التي تتموج بعنف، وكأنها تحمل أسيرًا يحطم القيود بكل قوته.

ذاعت حكايتها في المملكة، "ابنة الملك تحمل شيطانًا... ابنة الملك تحمل شيطانًا"، الأطباء والخادمات يهربون، لا أحد يريد المساعدة، ولا يأبهون لوعيد الملك بإعدامهم.

الملك والملكة منزويان في غرفتهما، الصدمة تعجزهما عن البكاء، وصراخ ابنتهما تأبى كتمانه الجدران والأبواب.

شحب وجهها، واختفت معالم الدنيا حولها شيئًا فشيئًا، بقع الدماء تتناثر فوق سريرها، حتى انشق بطنها بقرونه، تمزق بطنها تمزيقًا، انفجرت دماؤها فملأت السرير وأرض الغرفة وحوائطها، وبصوت منكر يصرخ الطفل، أو الشيطان الوليد.

ومن بعيد جاءت كلاب سوداء من كل حدب وصوب، هاجمت رجال القصر وهدمت الباب الكبير، وصعدت برشاقة سلم القصر الطويل، ثم كسرت باب غرفتها، والتقطته وغادرت الغرفة ورحلت.